ضيوف ابن سعود(١)

ج. د. فان بيرسم

ترجمة: د. سعود بن دخيل الرحيلي
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب -جامعة الملك سعود

لم تعد مسألة الدخول إلى نجد بالنسبة إلى الأطباء الأمريكيين المبعوثين شيئاً جديداً. إذْ استُدْعي الدكتور هاريسون للقدوم أولاً من قبل الملك لعلاج ابنه عام ١٩١٨م (١٣٣٦هـ). ومنذ ذلك الحين، قام الدكتور ديم بِستِّ جولات طبية داخل نجد والأحساء، كما أنهى الدكتور ستورم حالياً جولته الطبية في نجد والحجاز بعد قضاء ثلاثة شهور في بلاد الملك.

وقبل سنتين استدعيتْ سيدة طبيبة وأخرى ممرضة لمرافقة الرجال الأطباء في بعثتنا. وفي هذه السنة حصل مبعوث غير طبي وابنه على إذن الالتحاق بالمجموعة الطبية؛ مما يؤكد أن الملك لا يخشى دخول الأجانب إلى مملكته. حيث عُرف عنه قوله: "نحن نعرف ما يجب أن نتجنبه، ونعرف ما يجب أن نقبله لمصلحتنا الخاصة".

ومع ذلك يجب أن نعلم أن لا أحد من الأجانب يستطيع الدخول إلى نجد دون إذن من ابن سعود؛ أي: من الملك نفسه. ويعد هذا الإذن هو جواز السفر. ولا يحتاج المرء بعده إلى شيء أكثر من المرور إلى الداخل، وهذا - بالنسبة لمجموعتنا على الأقل - يعني ضمان العبور

(1) G. D. Van Peursem. Guests of King Ibn Saud, The Muslim World, Vol. 26 , 1936. pp. 113 - 188.

الحر، والحماية على الطريق، ومد يد العون لنا من جميع الموظفين الرسميين والمواطنين الذين نلقاهم على الطريق في هذه الحكومة العربية، لأن المرء إذا كان مقبولاً عند ابن سعود، فهو صديق كل الناس، وطريقه ميسور، فلا أسئلة تُلقى عليه وكل شيء في الدنيا على ما يرام. غير أنه من الصعب أن نتصور ما يمكن أن يحدث لغير المرحب بهم.

وفي فصل الخريف الماضي تلقى الطبيب المسؤول عن مستشفياتنا دعوة من الملك بالمجيء إلى نجد، ويصحب معه سيدة طبيبة، وأخرى ممرضة، ومجموعة من مساعدي الأطباء. وفي الإجابة، أرسلنا رسالة نسأل فيها: هل أنا وابني البالغ من العمر خمس عشرة سنة قد شملنا إذن الانضمام إلى المجموعة؟ ومع أن السيدة فان بيرسم (زوجة الكاتب) لم تكن سوى ممرضة، فهي معروفة في نجد باسم "الدكتورة". وقد أصابت الدهشة معظمنا من العرض السخي الفوري الذي قدمه الملك. وفي حد علمي، لم تكن هناك قيود مفروضة علينا، ولا شيء أكثر من هذا يمكن طلبه. وهذا كله يُظهر مدى الثقة التي وضعها الملك في أطباء إرساليات البحرين.

وأنا - كواحد - كنت أجني ثمار ثماني عشرة سنة من الجهد والصداقات في البعثات الطبية. وكان عرب نجد، من الملك إلى من هم دونه لهم عقول ذات توجه طبي، يوضح ذلك أن الطبيب حينما يكون متقنًا عمله أو حتى لو لم يبلغ درجة الإتقان التام فإنه يحظى باحترام عالٍ بين الناس، ومن هذا المنطلق تتجلى نسبة الاحترام التي يحظى بها جراحون مدربون تدريبا أمريكيا، ويؤكد هذه الشهرة التي يتمتع بها الدكتور ديم - بعد الملك - عند عرب وسط الجزيرة[٢].

(٢) في هذا مبالغة من الكاتب، وربما منشأ ذلك الاهتمام الذي وجدته البعثات الطبية والحرص عليها من عامة الناس (المحرر).

ومن الوقت الذي غادرنا فيه البحرين في فبراير إلى حين عودتنا إليه في يوليه، كان أفراد المجموعة كلهم ضيوف الملك. فالقارب الذي أقلنا من البحرين إلى العقير كان له. وكان البحارة مواطنين من نجد. وكانت اللحوم والأرز المستهلكة من بداية الرحلة إلى نهايتها على حساب الملك. وقد انتظرتنا في العقير ثلاث سيارات لتنقل المجموعة إلى الهفوف. وهناك تولى رعايتنا الرجل النشط دوماً، محمد الطويل رجل الجمارك ووكيل الملك. وقد تطلَّب الإعداد للرحلة الطويلة الشاقة إلى الرياض يومين. وأي نقص كان يحدثه الإسراف في النفقة تتم تغطيته من ميزانية الملك. ولكن حين يتعلق الأمر بالحصول على نقود، تُعمل لذلك تقارير دقيقة.

وقد وضع الملك تحت تصرفنا سيارتين وثلاث شاحنات لبقية التجوال من الهفوف إلى الخفس إلى الرياض وحائل وبريدة وعنيزة والعودة ثانية إلى الرياض والهفوف. كما تطلَّب الأمر توفير شاحنتين لصناديق العلاج، وصفائح البنزين فقط. وحمل السائقون صفائح من البنزين تسع ٨٥ جالوناً، وحين وصلنا إلى حائل أخبرونا أنه لم يكن معنا من البنزين ما يكفي لرحلة العودة؛ إذ كان استهلاك البنزين على هذه الطرق الرملية هائلاً، بل مفرطاً في الحقيقة. ولكن البترول كان أيضاً على حساب الملك، فلم القلق؟! وقد تطلب الأمر حمل أربعين قربة من الماء؛ حيث كانت السيارات تلتهم قدرًا هائلاً من الماء والبنزين في هذه الأجزاء، لأن المحركات كانت تجري على سرعة بطيئة معظم الوقت. وبالإضافة إلى هذا كله، حملنا ثلاثة خراف وكيسين من الأرز، وكميات من القهوة والشاي...، وكنا في الواقع أشبه ما نكون ببارجة محيطية مكتفية بذاتها، وبمحتوياتها للفترة الزمنية المستهلكة والمسافة المقطوعة.

وكان الأمراء في حائل وبريدة يتلقون من بعض المراكز أوامر بتزويدنا، وبمنح الدكتور كل ما يطلب. فمن هذه الناحية لم يخب لنا

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٧هـ السنة الثانية والثلاثون
الدارة

أمل، ولم يُرفض لنا طلب أبداً. ولم يكن كرم الضيافة أمراً غريباً في جزيرة العرب. ولكن لا أحد في نجد اليوم يستطيع أن يكرم ضيوفه بمثل تلك الدرجة من السخاء إلاّ الملك. غير أن هذا كله بالنسبة لابن سعود لم يكن سوى نقطة في دلو. حيث كان يأكل على مائدة الملك آلاف الناس يومياً.

لا أحد في نجد اليوم يستطيع أن يكرم ضيوفه بمثل تلك الدرجة من السخاء إلاّ الملك

وفي الخفس - وهو مخيم الملك الشتوي - تمشيت أنا على المطابخ المفتوحة في الهواء الطلق، وحدَّقتُ بدهشة صبيانية مستغرباً من عدد توانك الطبخ وحجمها؛ لأنها هكذا كانت توانك بالفعل. بعض هذه القدور يبلغ قطره ثمانية أقدام، وهو من الضخامة بحيث يسع نصف درزن من الخراف دفعة واحدة، ويستوعب بعد ذلك أكياساً من الأرز المطبوخ للضيوف البدو.

لا يكفي - بالنسبة للعربي - أن يزود المضيف ضيوفه بالطعام ووسيلة النقل، بل لابد أن يمطرهم بالهدايا كذلك. ومن المألوف تماماً في الرياض العاصمة أن يعود الزائرون بحلة كاملة من الملابس الجديدة مع بعض النقود. ونوعية الملابس، وكمية النقود كلها أمور تقررها وظيفة الضيف ورتبته وأهميته. ونحن - مجموعة من ثلاثة عشر شخصاً - كلنا أتينا لتقبل الهدايا في يوم مغادرتنا. لم يُستثن أحد. وبُذلت عناية عظيمة في تحديد مركز كل واحد في المجموعة، ثم وزعت الهدايا تبعاً لذلك. وكانت تلك عادة ونظاماً لامس أعمق مشاعرنا، لكنه بالنسبة للملك ومساعديه لم يكن أكثر من روتين يومي عادي.

وكان الشيء الذي يثير إعجاب المرء حين يكون في حضرة الملك (عرباً وغربيين على حد سواء) هو بساطته مع صفات أخرى أصيلة لا تُنكر. أو هل المبالغة القول: إن هذه البساطة هي سر قوته؟ في صالة الاستقبال يقوم الملك بمعظم الحديث. يطرح أسئلة كثيرة،

ويحب أن يلقي طرفة أو يلاطف أحد الزائرين. وكانت بنيته الجسدية ونشاطه مثيرين حقاً. ومن الجلي أنه يعمل جاهداً كي يحكم شعباً من الأعراب الصعبين جداً. وقد كسب أقاليمه بالحرب، وكل العرب تعرف هذا، ولا أحد يتحدى قوته ونفوذه. غير أن الملك نفسه شيخ أعرابي في كل شبر منه، إذ إنه لا يستقدم أساليب وأشياء أوروبية إلا حين تكون ضرورية للغاية، وحين يكون شعبه مستعداً لتقبلها. وهو يقول دائماً: إنه بدوي، وهو يلبس كواحد من البدو بالفعل. وكان يحب صيد الغزلان والأرانب والحباري كأي بدوي حقيقي، وإن كانت المطاردة تتم على سيارة بيوك تجري بسرعة خمسين ميلاً في الساعة فوق رمال وشجيرات. ويتسم الملك بأنه ديمقراطي وأوتوقراطي (فردي) معاً، ولكن الصفتين تمتزجان فيه بشكل رائع. ولقد رأى نساؤنا أي رجل رقيق هو مع أولاده! وهو أيضاً يُعد زوجاً طيباً بالمعنى الإسلامي.

وفي مقابل سخاء ابن سعود، أعطى الدكتور ديم والسيدة بيرسم وأحد عشر مساعداً طبياً وقتهم وخدماتهم مجاناً. وبالطبع يأتي الملك وأهل بيته أولاً في هذه الخدمة. وفي حقيقة الأمر، استُدعي الدكتور إلى الرياض من أجل سيدة محظية في حريم الملك. ولكن هناك مستوصفات تفتح أبوابها يومياً للعامة. بعد كل ظهر، عدا يوم الأحد تتم معالجة مئتين وخمسين مريضاً. ويأتي الغني والفقير والشحاذ والرجال والنساء وكل الناس فيما يبدو للعلاج في هذه العيادات اليومية. ويشكل أهل المدن أغلب المرتادين لهذه العيادات مقارنة بأهل القرى؛ لأن سكان المدن يحجزون الصفوف قبلهم؛ مما يفوت عليهم فرصة العلاج. إن عدد هذه المستوصفات وحجمها الفعلي لم يقدر حتى الآن. لقد وُزِّعت على هذه المجموعات الكبيرة أربعون حقيبة من الأدوية، وبقي أحد المساعدين مشغولاً على الدوام بإعطاء حقن في العضل وفي الشرايين للرجال فقط. هذا يشير إلى أن الأمراض

التناسلية قد أصبحت منتشرة عموماً في السعودية[٣]. لقد قال أحدهم: إنه إذا لم تعالج هذه الحالة، فإن تعداد السكان سوف يتناقص، وقد تؤدي إلى فناء قطاعات معينة فناءً تاماً.

وقد بلغ مجموع حالات العلاج التي قُدمت في الرياض ٩٩٩٣ حالة، وحُقنت ٢٥٨٥ حقنة، وأجريت ١٩٣ عملية. وفي حائل كان عدد المعالجات ٧٩٨٤ و٢١٢٦ حقنة، و١٦٠ عملية. وفي عنيزة بلغ مجموع العدد ٤٨٨٩ حالة علاجية و٨٢٨ حقنة، و١١٨ عملية. هذا كله يجعل مجمل العدد ٢٢٥٦٦ حالة علاجية، و٥٥٣٩ حقنة، و٤٧١ عملية. هذا عدا حالات التطعيم وخلع الأسنان، والتقيح.

وكانت فترات ما بعد الظهيرة تخصص للعمليات، وكثيراً ما تحتم الحالات المحتاجة إلى عملية فورية على الدكتور الاستمرار لساعات من الليل. وحينما يشيع خبر وصول الدكتور إلى القرى والهجر، كانت تُحمل إلى المستشفى حالات متأخرة وشبه ميؤوس منها. وكان البدو - إذ لا يعرفون أن هناك حدوداً حتى للطب الحديث والعمليات - يجلبون ضحايا الجدري في مراحلها الأخيرة عندما تصبح أشباحًا من الجلد والعظم محمولة على نقالات كانت تظهر كل يوم. وضحايا الأمراض كانت تثير الاشمئزاز إلى درجة أن وجوههم (يا للمساكين!) لا ينبغي أن تُكشف أمام الناس. ونظرة واحدة إلى مثل هذه العينات كانت كافية لأن تجعل المرء يصاب بالقشعريرة لأيام وأيام. يقول الدكتور: "هذه حالة قصوى"، فيقول الأعراب: "لا ليست قصوى". هناك حالات كثيرة مثلها في حائل، ولكن الأمير لا يعلم عن هذا حتى وصل الدكتور.

وكانت حائل تُعرف بحروبها، وبأخبار الحروب وإشاعاتها. ولعل كل رجل كان قد خدم في الجيش بطريقة أو بأخرى. وهناك أعداد كبيرة

(٣) سبب انتشار هذه الأمراض هو قلة الوعي لدى الكثير من الناس، وعدم توافر الخدمات الطبية آنذاك. (المحرر).

من الرجال ما زالوا يحملون رصاصات في العضلات والعظام واللحم. ولم يكونوا آسفين أن ذهبوا إلى الحرب؟، بل إنهم يفخرون بالقتال من أجل الملك والبلاد. ولكنهم لا يعترضون على الدكتور حين ينزع الرصاص من الصدر والأكتاف. وفي هذه الأنحاء لا يُعد الجبان المتقاعس رجلاً على الإطلاق، والأمهات لا يعطين بناتهن لمثل هؤلاء الرجال. إنهم لا يحظون بأي احترام في جماعتهم. وفي المقابل، أي شرف يحظى به البطل المتهور! إنه يجلس في مقدمة المجلس. والأعرابي الذي يقتل من سيكون قاتلاً لابن رشيد أثناء وجوده في المجلس العام سيذكره الناس ذكراً طيباً، وتقدم له القهوة أولاً، ويزوج بإحدى الجميلات المرغوبات من بنات أرمينيا.

وبفضل حكم الملك القوي - على أية حال - عم السلم والهدوء جميع الأنحاء، حتى في بلد بعيد مثل حائل. إن المرء لا يسعه الكف عن الإعجاب بقوة هذا الرجل الواحد وهو يراه يحكم ثلاثة ملايين من البشر المبعثرين على مساحات شاسعة. وإن المرء ليسافر أميالاً وأميالاً لساعات وساعات دون أن يرى في الأفق إنساناً أو وحشاً أو أية حياة في الواقع. وإن المرء ليشكر الله على مجيء ابن سعود، إذ لا يوجد الآن سلب ولا سرقة على مسافة الطريق. ولقد فقد شخص في مجموعتنا فراشه في الصحراء فأشرنا نحن إلى أن البدو قد يجدونه ويعيدونه، وهنا أنار أحد العرب أذهاننا بالقول أن لا أحد من البدو يستطيع لمسه، فضلاً عن تسليمه، خوفاً من أن تقطع يده اليمنى على السرقة. إن الوضع هادئ على جميع الجبهات بفضل اليد الحديدية لهذا الرجل الواحد - الملك(٤).

فيما يتعلق بالسؤال لماذا نقدم نحن هذه الخدمة الطبية بالمجان وللجميع؟! فإن الإجابة جاهزة سلفاً: "خذْ بالمجان، وأعط بالمجان"،

(٤) هذه شهادة معاصرة للأحوال في البلاد في تلك الفترة التي تعكس إرساء الأمن والاستقرار بفضل الله، ثم سياسة الملك عبدالعزيز وحكمته، رحمه الله. (المحرر).



"طبعاً"، فإن العرب قالوا: "أتباع النبي عيسى ابن مريم قوم طيبون". أليس القرآن يقول: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً...﴾ [الحديد: ٢٧]

إن روما لم تُبن في يوم. ونجد لن تتغير بين عشية وضحاها. فالناس ملتصقون بدينهم وبتقاليدهم الاجتماعية. ولكن إذا كان في السنوات الخمس عشرة الماضية مؤشر، فإن خمساً وعشرين سنة قادمة سوف تشهد جزيرة عرب جديدة.